اجتهادات
مئويةُ مزدوجة

يعيش المرء حياته متطلعًا إلى المستقبل، وهو ينظرُ إلى الماضى لأسبابٍ مختلفة أحدها سمّاه الكاتب الفرنسى مارسيل بروست البحث عن الزمن المفقود أو الضائع. وبروست, الذى حلت المئويةُ الأولى لرحيله قبل أيام, واحدُ من قلةٍ نادرة من الكُتاَّب احتفظوا بمخطوطات أعمالهم، وحُفظت بعد رحيلهم. ولهذا يشملُ الاحتفال بمئوية رحيله عرض مخطوطات أجزاء روايته الأساسية الأكثر شهرة (البحث عن الزمن المفقود)، ضمن معرضٍ تقيمُه المكتبةُ الوطنيةُ الفرنسية ويتضمنُ متعلقاته الأخرى الباقية.

تتكونُ رواية بروست هذه من سبعة أجزاء يتجاوزُ عددُ صفحاتها الخمسة آلاف. ولهذا فهى روايةُ نخبوية لم يصبر على قراءتها إلا عددُ قليل جدًا من القرَّاء، إلى جانب النُقاَّد الذين منحها نقدُهم شهرتها وذيوعها. وقد أمضى بروست حياته فى كتابتها، ورحل قبل أن ترى أجزاؤها الثلاثة الأخيرة النور، فنشرها شقيقه. وهو لم يكتبها فقط، بل عاش معها فى عزلته المرتبطة بظروف نشأته الأولى. وهى مزيجُ من السيرة الذاتية والخيال، إذ تمتزجُ فيها سيرةُ الكاتب وحياة الراوى.

وتكتسبُ هذه الروايةُ أهميتها من كونها إحدى بواكير الرواية الحديثة التى بدأ ظهورها فى مطلع القرن الماضى، واختلفت عن روايات القرن التاسع عشر. فقد استفاد بروست من قراءة كتاب الناقد الفنى الإنجليزى الرائد جون راسكن (النقد الفنى) فى كتابة روايته التى نُشر الجزء الأول فيها بالفرنسية عام 1913، ثم بالإنجليزية فى 1922 الذى يرى كثيرُ من النقاَّد أنه العامُ الافتتاحى لتاريخ الحداثة الأدبية.

ولهذا يجوزُ القول إننا إزاء مئوية مزدوجة تجمعُ رحيل كاتبٍ وافتتاح عصر الأدب الحديث الذى كان هو أحد رواده. فقد نُشرت خلاله أيضًا روايتا فرجينيا وولف (غرفة جاكوب أو يعقوب)، وجيمس جويس (يوليسيس).

ولم تكن بدايةُ الرواية العربية الحديثة بعيدةً عن تلك الفترة. فكانت روايةُ (زينب – مناظر وأخلاق ريفية) التى كتبها د. محمد حسين هيكل فى بداية حياته، ولم يضع اسمه على طبعتها الأولى التى أُصدرت

عام 1914 (بقلم فلاح مصرى), خطوةً أوليةً صوب الرواية الحديثة، لأن العيوب التى شابتها لا تمنع اعتبارها بداية الاتجاه إلى هذه الرواية.